نسقيّاتُ الرّصدِ السّرْديّ

Systems of Narrative Observation

د. سمير عباس كاظم

(Sameer Abbas Kadhim (phD

أدب حديث / سرد

Lecturer of Modern Literature Fiction

الجامعةُ المستنصريّة / كليّة التربية / قسمُ اللغة العربية

Dr.samirkaram@yahoo.com

ملخّص

السرد خطاب تخييلي أوثق صلةً بالطريقة التي تصوغ بها المجتمعاتُ النصية علاقةَ مسألة الغياب – بوصفه إحدى وسائل إنتاج الحقيقة – بهيمنةٍ رمزيةٍ مؤسَّسةٍ على تدبير الطرق المتبناةِ في إدراك العالم ، نزوعاً لتملّكِ شرعيّةِ الوجود الاجتماعي. فأشكال الصراعِ التي تطبعُ الحياةَ الاجتماعية لا تُنقل إلى مجال التخيّلِ على نحوٍ مباشرٍ، بل خلالِ توسّطِ الآخر ، بوصفهِ منظومةً رمزيّةً تَفرضُ طرقها المميزةَ في إدراك العالم بعدّه بنيةً من الغياب. فالتحولات التي تَطالُ المنظومةَ – التي تجدُ أساسها في التحولات الاجتماعية – هي التي تفرض على التخييل تغييرَ طرق إنتاجه ، بذا يتمكّن الموقع (المحتوى الزماني والمكاني الذي يُوحى به بوصفه لفظاً خارج كل اقتضاء نظري) وما يتأسّس عليه من نسقيّات، من ضبط الانبثاقاتِ التعبيرية المختلفة، وانتشارها عبر تنامي التعبير، ومن تحديد بعض الجوانب المتعلّقة بالتوزيع (مَوضَعةُ فعل الكتابة نفسه على مستوى تنامي التعبير وانتشاره) ، فصورة السارد – الراصد النمطيّة لا تحملُ معها إلى العالم النصي سماتِ مكانها الخطابي فقط، بل إيضاً متاحاً من إمكاناتِ تنضيد سيولتهِ التعبيرية؛ أي الاهتداء إلى أنّ كل نسقيّة موقعيّة لا تقبلُ من أشكال الصوْغِ التعبيري إلا ما يتلاءم مع طبيعة إنتاجها للغيابِ؛ فتعدّدتْ النسقيّات في هذا البحث لمحاولةِ رصد تلك المنظومة الرمزية.

Systems of Narrative Observation

Fiction is an imaginative discourse closely linked to the way the narrated worlds related to absence, comprising a truth producing means; it has the symbolic power that enables us to conceive the world around us in order to legitimize our human disposition for social existence. The different forms of conflict that abound the social life are not communicated directly but often mediated by another symbolic system that imposes its distinctive nature when interpreting the absent but decontextualized world. This mediation, which is based on the social transformations, imposes new ways of discursive production on imagination enabling fictional position, which includes the temporal and special contents, and its different narrative structures, to organize the expressive fluxes and determine the narrative distribution. In doing so, it is not only the narrator's stereotypical characteristics that are conveyed to the narrated world, but also his own faculty for artistic expression.

المقدمة

يكتسي الراصد صبغةَ توسّطٍ بين الموضوع المرصود والجهة التي يفترضُ فيها أنّها معنية باستقبالِ عملية الرصد ، بما يتصمّنهُ ذلك التوسّط من توسّطٍ ثانٍ بين الموقع والموضوعِ ، وهذا التوسّطُ مصوغٌ داخل المجتمعِ النصّي على وفق تطلّبات الهيمنة الرمزية في كلّ حقبةٍ معيّنةٍ بفعلِ سيادة زمرةٍ اجتماعيةٍ ما. وصياغةُ التوسّط تتحقّقُ غالباً في هيئةٍ تموضعٍ رمزي يُسندُ إلى الراصد بغيةَ تحديد طبيعةِ الموقعِ الذي يجبُ أنْ يشغلَه داخل عملية السرد، وبذا فإنّه – الراصد – يُعدّ صورةً رمزيةً لعلاقةِ خطابِ مجتمعٍ نصّي بالغياب.

قد يُشارُ إلى مصادرِ نقل الحدوث، بيد أنّ نسقيّةَ الحدوث – في حالة غيابه وطرائق نقله – تظلُّ متعلّقةً بفعل النقلِ، بما في ذلك ذكرُ مصادرهِ. وفعل النقل لا يقول أبداً نمطيةَ إنتاجه إلى جانب قول ذاته بوصفهِ فعلاً؛ لأنّ صنيعاً من هذا القبيل يرتبط بالمعرفةِ النقدية الواصفة لفعل النقل. وبالتالي ستكونُ مهمّتنا ماثلةً في الكشف عن الطريقة التي تتسلّلُ بها هذه النمطيّة إلى عالم السرد، وتؤثر في صياغته طبولوجياً. وتَنتِجُ هذه الطريقة عن الصبغة التي تتحقّق بها

علاقةُ الرصد بموضوعٍ ما يفترضُ فيه أنه في حالة غياب قياساً إلى جهةٍ معيّنةٍ يوجّهُ إليها، وتوجدُ على مسافةٍ من عالمِ الحدوث والظهور.

هكذا تكونُ علاقةُ السارد – الراصد بموضوعهِ منظوراً إليها من خلالِ طبيعةِ الموقع الذي يتضمنُ الأسسَ التي تُبنى وفقها نمطيّةُ إنتاج الغياب بوصفها صياغةً رمزيةً للمسافة. وتعدُّ هذه الأخيرة آهلةً بالتوسّط، لأنها تُنتجُ داخل المجتمع النصي على نحوٍ رمزيّ. وبالتالي يعدّ الخطاب السردي، بوصفهِ خطاب غياب، تنميطاً رمزياً لعلاقة هذا المجتمع بالإخبار، بما يتطلّبه من مصداقيةٍ ، وشرعيةٍ ، وسندٍ ، وأولويّات ، وحجمٍ ، وإخفاء ، أو إظهار؛ أي تنميط النسقيّة التي يُصاغُ بها الإخبارُ عن موضوعٍ ما، وهو يوصفُ بكونهِ في حالةِ غيابٍ، لا حالة حضور. وسيكون تعداد أنواع هذه النسقيّة التي ينقلُ بموجبها الغياب بحسب التوصيف الآتي:

– **النسقيّة المتطابقة:** تتمثّل في انسياق الانبثاق الوحيد لموقع النقل – انبثاق كلام السارد– الناقل المتّصل، الذي يتصف نقله بنوعٍ من التماسك وعدم الارتداد أو الانقلاب على كلمته. هو لا يحتاجُ الى التقاط انفاسه، ولا النظر إلى الوراء من أجل فحص منقوله السابق؛ وذلك لأنّ كلامه يعدّ مجرّد حلقةٍ من حلقات سلسلة نقل يتعاقبُ على صياغتها رواةٌ مجهولون يُعدّون أمناءَ مخلصين على صفاءِ الذاكرة الثقافية واستمرارها.

– **النسقيّة التحديديّة:** تفرضُ ضغوطاً نوعية على الانتشار الطبولوجي مُخالِفةً لما رأينا في النسقيّة الأولى؛ ولعلّ أهم هذه الضغوط يتمثل في حدوث تفاوتٍ بين العالم ونقلهِ، ويتجلّى ذلك في محدوديّة اللغةِ تجاه عالمٍ لم يعدْ معطىً على نحوٍ بديهيّ.

– **النسقيّة الراشحة:** تعمل على مدّ الانتشار الطبولوجي بخصائص محدّدةٍ، وأول مايُثير التنبّه وحدةُ النقل التي تستندُ إلى ضمور الأنا الذي يعدُّ معبراً نحو العالم. ويتّصف التعبير، تبعاً لهذه الخاصيّة بنوعٍ من الحرية أكثر ممّا هو واردٌ في النسقيّات الأخرى. وأمر من هذا القبيل يمكّنُ من انبثاق مظاهر نصيّةٍ متعدّدةٍ ومتباينةٍ، من دون خضوعٍ لضرورة التماسك النصّي التي يفترضُها السردُ عادةً.

– **النسقية التقاطعيّة:** إنّ ظهور السارد نصّياً انطلاقاً من الاسم الخاص، أو بوصفه مجرّد ضمير، لهُ أثرهُ البيّن في الانتشار الطبولوجي، بحيث يصير نقطةَ ارتكاز بالنسبة الى جميع المواقع المتقاطعة، فضلاً عن حضور أثر التلفّظ في عملية النقل من خلال ظهور مؤشرات (الضمير والزمن والمكان) على نحوٍ صريح في الإشارة إلى مصدر الكلمة وتموضعها قياساً إلى تعدّد المواقع.

- **النسقيّة التباعديّة:** يتميّز الانتشار الطبولوجي في النسقيّة التباعديّة بتقاسم خصائص نوعيةٍ كثيرةٍ مع النسقيّةِ التحديدية ، وبخاصة على مستوى وحدة السارد ، وما يترتّب عليها من متطلّبات أسلوبيةٍ ترتبطُ بانسجام عملية النقل وتماسكها. لكن ما يجعل هذه النسقيّة متمتّعةً بخصائصَ تميّزها عن النسقيّة التحديدية هو تنازل السارد – الناقل عن وثوقيّتهِ ، واكتفاؤهُ بموقعٍ يتميّزُ بالالتقاط ؛ أي التقاط عالم ينقسمُ على نفسهِ تجاهَ موضوعٍ محدّدٍ ، أو قضيّةٍ محدّدةٍ.

- **النسقيّةُ التصدّعيّة:** تتّصفُ بوجود سارد – ناقل مُشاركٍ في العالم السرديّ المنقولِ، بوصفهِ أحدَ حوامله، أو منتمياً إلى زمن حدوثهِ. وقد يتجلّى هذا الوجودِ السرديّ من خلال اسمٍ واقعي، أو من خلال بروز ضمير الأنا بوصفهِ ذات التلفّظ السردي. إنّ حضور السارد – الناقل بهذهِ الصفة يُفضي إلى إظهار آثار التلفظ، على نحوٍ ملفتٍ بالنظر، بما يستدعيه من مؤشرات لفظيّةٍ دالّة على هذا الحضور، وبما يستدعيه ذلك أيضاً من تبعات على مستوى نمطيّةِ التعبيرِ وتنضيدهِ.

- **النسقيّة الاستكشافيّة:** تتضمّنُ هذه النسقية في تسميتها ما يُشيرُ إلى مُمكنها في صعيدِ النقلِ السردي. فهي تضعُ في صلب بناء هذا الممكنِ نزوعاً نحو استشراف حدودِ عالم غير العالم المألوف. ومن ثمة لا بدّ أنْ تحضرَ في كل نسقيّةٍ استكشافيةٍ علاقة تضاد بين عالمين: عالم منفصل عنه وعالم متصل به. ولا يوضع العالم المتّصل به، في حركة الاستشراف هذه، إلا بوصفهِ معبراً نحو مساءلة الخصوصية الذاتية في ضوء غيريّةٍ تضعُ نفسها، لا بعدّها دالةً على الاكتمال أو النقص، وإنما بوصفها فرقاً يشكّل محتوى حركة النقل السردي.

النسقيّةُ المُطابقة

تجدر الإشارة، قبل مُعالجة هذا الصِّنف، إلى أنّنا نبنيه في ضوء النصوص السرديّة العتيقة، شفهيّة كانت أم كتابيّة. وتقوم النسقيّة المُطابقة على فحص عمليّة تفعيل علاقة السارد – الراصد بموضوعه المحدَّد في الحامل بوصفه مَعْبَراً إلى العالم والأشياء. وتقوم هذه العمليّة على إنتاج الغياب انطلاقاً من موقع إخبار نصطلح على تسميّته بموقع الاستحضار" تقابل بين ملفوظاتٍ تمرّ عبر القناة الشفوية والذبذبات الصوتيّة وملفوظاتٍ تمر عبر الخطّ / الكتابة، وهذه القناة الأخيرة تسمحُ بتخزين المعلومات ونقلها عبر الزمن والمكان، وهي تسمح بإدخال اللغة إلى مجال المرئي وبالتالي دراسة الملفوظات بمعزلٍ عن سياقها"[١]. بيد أَنَّ ما يُمكِن الإقرار به توّاً، هو اتّصاف الموقع المبني وفق هذه النسقيّة بخاصّيّة التنزيه الذي لا تُحيط به الشبهات. ومردُّ هذه الخاصّيّة لا يعود إلى عمل الراصد، وإنّما إلى الصورة النمطيّة التي تُسند إليه داخل الثقافات

التقليديّة والقديمة. وهذه الصورة تُحدِّد الحيِّز الذي يجب أن يشغله مُنتج خطاب الغياب، وتُحدِّد طبيعة فعله الرمزيّ. ويتمثَّل هذا التحديد في عمليّة الالتفاف على الفراغ بوصفه خاصيّة مُرتبطة بنقل المادّة، بما تتميّز به من نقص، إلى اللغة؛ وذلك بفضل إنتاج محتوى المسافة ذاتها الماثلة بين موقع الرصد والموضوع. وتتّسم هذه المسافة بنوع من الضآلة، إن لم نقل بالاقتراب من درجة الانمحاء؛ حيث يتمتّع الموضوع بجهوزته وشفافيّته التامّتين، غير أنّ هذه المسافة آهلة بتوسّط رمزيّ يُحدِّد اشتغال موقع الاستحضار، وعمل الراصد – السارد، بما ينتج عن ذلك من بناء طبولوجيّ مُميِّز لإنتاج الخطاب السرديّ.

يتمثَّل التوسّط المذكور أعلاه في تطلّب الهيمنة الرمزيّة الذي يقدِّم ذاته انطلاقاً من قيام تحديد طبيعة العالم على استمرارٍ يستند إلى إعادة إنتاج أصل ما " بمعنى إنّ حكاياتٍ وقصصاً – وعموماً مسرودات كثيرة – تؤسّسُ لواقعٍ جديدٍ، لأعمالٍ وحوادثَ، إيجاباً بالتمسّك بها وتكرارها أو سلباً بتجنبّها ، تضعُ أطراً قرائيّةً تفسيرية تقويمية لأعمال وحوادث ووضعيات أخرى مشابهة"[٢]. وبالتالي تحلّ مشكلة الغياب، هنا، عن طريق افتراض قابليّة استمرار هذا الأصل في عالم الحضور. فالرأي العام يتكفّل ، إلى جانب القناعات المُشتركة الراسخة، بضمان هذه الاستمراريّة في هيئة تطابق تامّ بين الحضور الذي تتمتّع به اللغة والغياب الذي يلحق بالحدوث والموضوعات والعالم. ومعنى ذلك أنّ نقل الموضوع من حالة الغياب إلى حالة الحضور يُعَدّ عُبوراً رمزيّاً قوامه أصل العالم الثقافيّ، سواء أكان هذا الأصل يستند إلى المجد التاريخيّ، أم إلى صلاحيّة الاعتقاد، أم مشروعيّة القيم. فموقع الاستحضار يستمدّ فعاليّته من عمليّة العبور الرمزيّ ؛ حيث الراصد – السارد صورة نمطيّة لفعل تنشيط الغياب داخل مجال الحضور. وبالتالي يتّسم فعله بكفاية تتأسّس على الدراية ، والإحاطة ، بما تتطلّبانه من تملّك أسرار العالم. وهكذا تُصاغ مادّة العالم، لا بوصفها واقعاً فيزيائيّاً أو معيشاً، وإنّما بعدّها أصلاً ثقافيّاً يُختزل في التبدّي المُستمرّ لحقيقة مُعطاة سلفاً، وعلى نحو جاهز. فالأمر لا يتعلّق، إذن، بمسألة نقل الأشياء والموضوعات الواقعيّة والغائبة إلى ما تتمتّع به اللغة من حضور، ولكن بنقل أصلها الثقافيّ "بمواصفات الوظيفة النسقية، نسقان في نصٍّ واحد أحدهما مضمر والآخر مضادٌّ له ويكون المضمر نقيضَ العلني، وجميلاً يُستهلك بوصفه جميلاً، وجماهيرياً يحظى بمقروئيةٍ عريضةٍ[٣]؛ ومن ثمّة يُلتفّ على الفراغ ، في النسقية التّطابقيّة، باستكمال ملئه عن طريق المُطابقة بين عالم الحضور وهذا الأصل، ويتأسّس السرد وفق خاصيّة الاستحضار التي تعني استدعاء الغياب في هيئة استمرار لأصل ما يُواصل ظهورَه من دون أن تَدْعوَ الضرورةُ إلى الاعتراض عليه، أو الشكّ فيه، لأنّ ما يُستحضر، أو يُخبر عنه، لا يهب نفسه إلّا بوصفه مُواصلةَ الوجودِ ذاتَه.

النسقيّةُ التحديديّة

إذا كانت النسقيّة الوثوقيّة المُطابقة تتأسّس على إبراز تطابق العالم المنقول عبر الكيفيّة القائمة على أصل انتسابيّ تقليديّ ، فإنّ النسقيّة التحديديّة تنهض على تدمير بنية التطابق من دون المساس بالبُعد الأحاديّ للحقيقة والعالم، ذلك أنّ العمل الإبداعي نفسه لم يعدْ يُفصح عن إيمانٍ بالوحدة، ولم يعد موحِّداً أو مجسِّداً لرؤيا توحيدية، بل أصبح متشظّياً يشفّ عن رؤيا تفتيتيّة(٤).ويتجلّى ذلك التدمير في تغيير أسلوب إنتاج الحقيقة بإعادة النظر في علاقة الاستعمال بها؛ حيث يَؤُول وجودها إلى شروط مُحايثة لها تقوم بتحديد ظهورها.

تنشأ التحديديّة، إذن، وفق تفعيل العلاقة بين السارد – الراصد وموضوعه انطلاقاً من إنتاج الغياب بموجب إخبار نصطلح على تسميّته بموقع التحريّ، بما يعنيه ذلك من انتقال من (الأمور تحدث دائماً هكذا) إلى (لماذا تحدث الأمور على هذا النحو)؟. وهي تتميّز، تبعاً للسؤال الذي تنهض عليه، بخاصيّة الكفاية الموسوعيّة التي تنشأ عن حيازة خبرة مُشيَّدة على خصائص مُميَّزة قوامها القدرة على السبر، والمسؤوليّة، والحريّة الذاتيّة. وتستجيب هذه الكفاية إلى صورة نمطيّة خاصّة تُناسب السارد – الراصد في العصور الحديثة، بما يطبعها من سيادة للعقل، وتحرير للإرادة في علاقتها بالمعرفة. ومن ثمّة يصير المكان الخاصّ بالسارد– الراصد وفعله الرمزيّ موصوفين ، داخل فضاء إنتاج الخطاب السرديّ، بنوع من الاستقلال والحرّيّة في اختيار مادّته انطلاقاً ممّا هو قابل للمُعايشة، وهو ما يمكن أن يتّسقُ مع اصطلاحةِ " الكثافة الواقعية"(٥)، والجريان أمام الإدراك. بيد أنّ هذا الاستقلال، بما يتميَّز به من حرّيّة ظلّ يُعاني من هيمنة موقعه الخاصّ وسيادة كلمته.

نستنتج ممّا سبق أنّ صورة السارد – الراصد النمطيّة ليست سوى نِتاج المسافة التي تفصله عن موضوعه ، والتي يُفترض فيها القيامُ على التزامن بين وجودهما ، وإلاّ تُحوِّل الساردَ – الراصدَ إلى مُؤرِّخ ، وعلى خاصيّة الرصد المجهريّة المُمتدَّة من الموقع نحو المرصود السرديّ ، بما يستدعيه ذلك من اتصافات التقريب ، ونقل التفاصيل ، وإعادة بناء المُلتقَط انطلاقاً من تحرّك الموقع صعوداً من الجزء نحو الكلّ ، أو العكس.

وإذا كانت كلّ مسافة تخضع، وفق التصوّر الذي نبنيه، لتوسّط رمزيّ، فإنّها تتّصف في النسقيّة التحديديّة، بإنتاج توسّط نوعيّ قائم على النفي، ومعنى ذلك أنّ التوسّط يصير بدوره موضوعاً للموقع، وليس شرطاً من شروطه. فإذا كانت المسافة آهلة في النسقيّة المُطابقة، بتوسّط يُحدِّد علاقة السارد – الراصد بموضوعه ويُشرطها، فإنّها تعد آهلة في الوثوقيّة التحديديّة،

بتوسّط يستدعي رفعه من أجل صياغة العلاقة المذكورة آنفاً، والعالم أيضاً. لكن كيف تحدث علاقة هذا التوسّط بالغياب بوصفه مركزيّاً بالنسبة إلى فعل النقل؟

يُصاغ العالم، في هذه النسقيّة، في هيئة تبدّي خفاءٍ يكتسي صفة شروطٍ، أو عللٍ، أو هدفٍ ما ، أو كينونةٍ ما. فالغياب لم يَعُد، هنا، " أسناداً ثقافيّاً أو نمطاً محايداً "[٦]، وإنّما صار باطناً مُتخفِّياً يُحدِّد نوعَ الحقيقة التي يتقدّم نحوها فعلُ الموقع. بيد أنّ هذا الباطن لا يقدِّم نفسه بوصفه مُحَوَّلاً إلى ظاهر، كما هو الحال في الحكاية الشعبيّة (المسخ مثلا)، بل بعدِّه تعرُّفاً على ما يقبع خلف الظاهر بوصفه صيرورة واقعيّة. وبالتالي يُعَدُّ الغياب مُشكِّلاً، هنا، بموجب توسّط مركَّب؛ إذ يصير ما كان رأياً مُشتركاً ضامناً استمرار الأصل الثقافيّ، في النسقيّة المُتطابِقة، موضوعاً توسّطيّاً طبيعته؛ حيث يفضي نفي الغياب الذي يُشكّل الحضور، بما في ذلك حضور اللغة، إلى إثبات غياب آخر يتجلّى في الكائن المتخفّيّ، وذلك استجابة لتطلّبات النزعة التحديديّة التي تحلّ المبادئ محلّ استمرار الأصل (العقل – الغريزة – الأخلاق – البيئة – العرق – ... إلخ). وبالتالي يفقد التوازي بين حضور اللغة وغياب العالم والموضوعات مبرِّرَه، ممّا يؤدّي إلى التفاوت بين كفاءة اللغة الوسائليّة والثراء المميِّز للمادّة، بما يحفّ بها من غياب، و/ أو خفاء[٧]. ولهذا السبب يكتسب الفراغ بعدِّه نقصاً في المادّة صِبغةً استطراديّة، على مستوى اللغة، للالتفاف على طبيعة العجز الذي يلحق بوسائلها. فنقلُ موضوع ما، من حالة الغياب إلى حالة الحضور، يُعَدّ عمليّةَ إحالة رمزيّة أساسُها إرجاع العالم إلى امتداد عموديّ قائم على تبادل التأثير بين ما يُقدَّم بوصفه موضوعاً، وما يُقدَّم بِعَدِّه تجسيماً، سواء أكان هذا الامتداد منظوراً إليه انطلاقاً من المحيط الاجتماعيّ، أم منظوراً إليه انطلاقاً من الطبيعة البيولوجيّة، أم من العُمق النفسانيّ.

يتأسّس موقع التحرّيّ، إذن، على مُخاتلة البديهيّ بتعريضه إلى التفسّخ بفعل اختراق سطوحه نحو استجلاء ترسّبات خفّيّة، وبالتالي يصير العالم – بوصفه موضوعاً مُعرَّضاً إلى التنسيب– عائداً إلى مصدر وحيد مُجهَّز بيقين تامّ ذي صِبغة تأكيديّة وإثباتيّة؛ حيث لا يتسرّب الشكّ إلى ما يصوغه بوصفه غياباً. فإذا كان صحيحاً،هنا، أنّ العالم لم يَعُد منظوراً إليه من خلال استمرار أصل ثقافيّ متعالٍ، فإنّ البديل المُقترح، والمُتمثّل في المبادئ المُتخفّيّة، ظلّ – على الرغم من عدم إصراره على مُداومة حضوره – أسيرَ التصوّر الأحاديّ للغياب، الذي يتجلّى في إسناد أحقيّته في صياغة الحقيقة إلى راصد وحيد، والاكتفاء بمظهر للخفاء وحيد غير مُتعدِّد.

النسقيّة الراشحة

نقصد بالرشح ما يُفْرِزُه داخلُ الموضوعِ من تلقاء نفسه، من دون سبر أو تدخّل خارجيّ "فلا يمكننا أن نسمَ النّسقَ بأنّه دينامي إلّا إذا نظرنا إلى انطلاقته من بنيةٍ ثابتة لتحقيق بنيات صغرى هي من بنات البنية الوالدة، وهو دينامي أيضاً من حيث إنه يمكن بناء بنية مجردة من عنصرٍ واحدٍ أو عنصرين أساسيينِ، فالدينامية تحتكمُ إلى مراحل ثلاث، خلق المفاهيم، تنظيمها، صياغتها في قوانين تبيّن كيفيّة حصول التطور، فبمرجعيّتها الذاتية، وكذا تنظيمها الذاتي تنتقلُ هذه الحالات من حالٍ إلى آخر"[٨]. ويكون نتاجُه سيولةً تنبثق مُخترِقةً السطحَ مُعلنة عن وجودها. وبالتالي يُمكِن نعته بالرشح الذاتيّ في مقابل الرشح الغيريّ الذي يتّسم بتدخل خارجيّ من أجل استخراج الداخل الخاصّ بالموضوع. ففي حالة الرشح الذاتيّ الذي يُميِّز النسقيّة الراشحة يتكفّل الحامل– الموضوع بنقل ذاته إلى العالم، من دون وجود صورة نمطيّة مُفارِقة له يُمثِّلها سارد – راصد مُنفصل؛ الشيء الذي يجعل السارد مُكتسباً بُعداً ملموساً ومُجسَّماً على نحو مباشر. بيد أنّ الأمر لا يتحدَّد، هنا، في تحمُّل ضمير المُتكلِّم مُهمّةَ النقل فقط، بل تحدَّد أيضاً بكون المنقول يتمثّل في السارد نفسه؛ أي تحوّل هذا الأخير إلى موضوع لحركة نقله الخاصّة.

تتأسَّس الكيفيّة الراشحة، إذن، وفق تفعيل العلاقة بين السارد – الراصد والموضوع المُحدَّد في الحامل انطلاقاً من إنتاج طبيعة الغياب وفق موقع نصطلح على تسميّــته بموقع الاستبطان، بما يُفيده ذلك من إيحاءات نفسيّة، ومن انبثاق لأسئلة مُقلقة حول الأنا، وموضَعَة أصلها قياساً إلى حركة الزمن. بيد أنّ هذا الأصل لا يمنح ذاته على أنّه نقطة ارتكاز معروفة على نحو قارّ، وإنّما بوصفه ضياعاً يفتقر إلى مثل هذه النقطة.

إنّ صورة السارد النمطيّة في هذه النسقيّة ، تترتّب على الطريقة التي بفضلها تُنتج الحقيقةُ بوصفها غياباً. ويتعلَّق الأمر، هنا، بنقل الغياب من مجال الموضوعات الخارجيّة، وأشكال التحديد الموضوعيّة، إلى المجال الداخليّ الخاصّ بالكائن الإنسانيّ؛ حيث يتحوّل هذا الأخير إلى صيرورة من المُقاومات التي لا تكفّ عن إظهار خسارتها أمام صلابة العامّ. وبالتالي يُعَدّ إنتاج الغياب وثيقَ الصلة بالتحارب بين صيرورتينِ متناقضتينِ هما التعيُّنُ بوصفه عالم السُّنَن والقواعد، وعدم التعيُّن بعدِّه العالمَ الأصيل الضائع، الذي كان مواطناً للذات؛ أي عالم ما قبل المجتمع والتاريخ؛ حيث كانت الأنا تتمتعّ بكلّ أسباب المعنى، سواءٌ كان لذلك المعنى وجود خارجي فإنّ كل ما يُضاف إلى الشيء الخارجي تصحّ إضافته إلى المعنى، أم لم يكن له وجود خارجي ومع ذلك فإنّ له ألفاظاً تدلّ عليه[٩].

يُترجِم الغيابُ نفسَه، على مستوى النقل السرديّ في هذه النسقيّة ، في هيئة ماضٍ خاصّ ذاتيّ يتّخذ من الذاكرة وسيلة رئيسة للتعبير عن ذاته. وبالتالي يكتسي النقل صِبغة إفصاح يسعى باستمرار إلى موضعَة نفسه قِــياساً إلى أنا مركزيّة تضطلع بمهمّة تخليص هويّــتها من إسار الصورة النمطيّة التي ألحقها المجتمع بها، التي تتكوَّن من مجموعةِ تعيُّنات تُحدِّدها داخل تاريخها الاجتماعيّ، بما في ذلك الضمير الذي يُحيل على الذات والاسم، وثنائيّة (الهنا–الهذا) التي تورِّطها في فضاء زمنيّ ومكانيّ غير مُناسب على الإطلاق. ومن ثمّة يصير خطاب الغياب مُمتدّاً من الهويّة التي يُمثِّلها الضمير إلى هوية المُحيط التي يشملها، مثل خطاب المركز عند الغزالي، وغيره، ذي البنيةِ المزدوجة/ النفعية، بين السلطة والعامة[١٠]، ويصير مُقدَّماً في صورة انشطار لا يقبل المفْصَلة، أو التسويّة: الأنا مقابل أنا أخرى، ومكان مقابل مكان آخر، وزمان مقابل زمان آخر. فالأمر يتعلّق، إذن، بعمليّة استرداد تُدرك، منذ البداية، على أنّها محكوم عليها بالاستحالة. ولذلك يُعبِّر الغيابُ عن ذاته مُتحرِّراً من الضرورة الأسلوبيّة التي تُشرط إنتاجه عادة، لا على مستوى جهة الفائدة، ولا على مستوى الصيرورة السرديّة، ولا على مستوى فعل النقل. فالخطاب السرديّ المُنْتَجُ لا يُحدِّد جهةَ فائدته في آخرٍ بَعْدِيٍّ يتموضع في زمن مستقبليّ قياساً إلى زمنه الخاصّ، وإنّما في ذاته بوصفه خطاباً. ولذلك يتحرّر من إكراهات (الأنت) التي تقبع خلف كلّ خطاب "لأنّ القبول هو جوهر كلّ شيء، كما يقول دريدا، إذ إنّ هوية الذات / فُطِرتْ على القبول، على تقبّل ما يسكبُه الدهر المحيط من نوازلَ أو نوازعَ"[١١]، ويُحوّل هذه (الأنت) إلى مكوِّن داخليّ للأنا. ومعنى ذلك انثناء الخطاب على نفسه. كما أنّ موقعاً من هذا القبيل يجعل الصيرورة تُــمَــوْضِع المكوِّنَ الصيغيّ الحقليّ (الاستثنائي) في زمن يطبعه الفوت، وبالتالي لا يتّخذ الاستثناء بعداً هدفيّاً يتّجه نحوه الجهد، بما يُفيده ذلك من بعديّة، بل يتّصف بكونه في حالة ضياع أبديّ؛ أي في حالة عدم تحقُّــق يكتفي بعرض مُخلفاته على أنّها فوت فقط. بينما يتّسم فعل النقل بحريّيّته التامه غير مبالٍ بالتماسك بوصفه مطلباً ضروريّاً للخطاب السرديّ، لا لأنّ الأمر يتعلقّ بوعي يقدِّم ذاته في هيئة شاشة يُســقِــطُ عليها العالَمَ حسب حركته الخاصّة فقط، ولكن أيضاً لأنّ عالم التعيُّن، بكلّ ما يتطلّبه من تعيّنات، هو ما تُعاني منه حركة الذات في علاقتها بالغياب.

لا يتعلّق الغياب، إذن، في النسقيّة الراشحة، بآخَر يتّخذ صفة (أنت) مُنفصل، لأنّ الأنا ليست هي الآخر المُتموضعَ خارجها، وإنّما هي آخَــرُها الذي له صِبغة أنا غير مُتعيِّنة. وبالتالي فالأنا التي تُنتج خطاب الغياب حول ذاتها تُعاني من علاقة التباس بهذا الغياب بوصفه أنموذجاً محتواه الزمن الذي يتجلّى عبر الفوت؛ أي ما كان مُمكِناً ولم يُختر أو ينتهج في حينه، أو كان

مُمكِناً ولم يَعُد كذلك، أو ذكرى لا تقبل التعيّن مرة أخرى على الإطلاق، لأنّها وجدت قبل تشكّل الزمن نفسه.

يُعَدّ موقع هذه النسقيّة المُميَّز مُنعكساً، ولا نعني بذلك انقلابه على نفسه، وإنّما نعني به تحوّله إلى موضوع لذاته؛ بحيث يصير موقعاً ينظر إلى نفسه انطلاقاً من النظر إلى مواقع كان يتحيّز داخلها عبر امتداد زمنيّ مُعيَّن، بل إنّ انعكاسيّة هذا الموقع تُخفي طموحاً في النقل يسعى إلى تحيّز داخل عَدَم موقعيّ. وهو تحيّز مستحيل، واستحالته هي ما يُؤسِّس محتوى المسافة التي تفصل السارد عن ذاته بوصفها موضوعاً، ما يعني السرد الذاتي والموضوعي مجتمعين في الذات الواصفة(١٢). فالعالم لم يَعُد موجوداً على مسافة مكانيّة أو زمنيّة، بل صار مُستقرّاً في بنية الموقع"إننا نضع المفاهيم كمقابلٍ للتجلّيات ونرى أنّ المفاهيمَ وليدةُ الوعي بالظاهرة وامتلاك القدرة على فهمها وتفسيرها، وهذه المفاهيم، للتوضيح، تتّصل بتسمية الأشياء، ووضعها في نسقٍ ينظّمُ علاقاتها بغيرها ويحدّدُ موقعَها منها"(١٣). ومن ثمّة تصير المسافة ذاتها موضوعاً لعمل الذات الناقلة؛ أي سعياً نحو الوجود خارجها، بما يعنيه ذلك من رغبة في السكن داخل فضاء لا تُحدِّده مسافه مُعيَّنة، وذلك لأنّ أيّ موقع هو مجهَّز انطلاقاً من ضرورات عالم التعيُّن، وهو عالم تطاله حركة النفي التي تصطحبها معها النسقيّة الراشحة. وتقتضي حركة النفي هذه رفع عالم التوسُّط الذي يُمثِّله الآخر الرمزيّ الذي يتحدَّد في العامّ بوصفه تعيّناً قائماً على رمزيّة السُّنن الخاصّة بالتّعيّنات التي سبق ذكرها.

تسود النسقيّة الراشحة في الحِقَب الزمنيّة التي تشتدّ فيها الفردانيّة، لا بكونها مطلباً للحياة والعيش، وإنّما بوصفها إحساساً بالعزلة. وبعبارة أخرى، تصير هذه النسقيّة مُلحّة حين يفقد الكائن الإنسانيّ ضرورته الإنسانيّة الأصيلة، ويفتقر إلى شرطه الأساس الذي يتمثَّل في مركزَةِ المعنى داخل فعله الخاصّ، وليس في عالم الأشياء. وتكاد هذه النسقيّة تسود في أنماط سرديّة مُعيَّنة، من قبيل الرواية السيكولوجيّة، ورواية تيار الوعي، والسيرة الذاتيّة، والتخييل الذاتيّ.

الكيفيّة التقاطعيّة

يتضمّن مفهوم التقاطع في ثناياه، عمليتي الالتقاء والافتراق بين موضوعين مختلفين، أو صيرورتين مختلفتين بالضرورة، او بنيتين خاصّتين تطالانِ مفهومَ الاسترتيجية برأي أيزر، ويقصِد بها البنيات الخلفية والأمامية وبنية الموضوعة والأفق، وربّما تتّسع لتضمّ القصودَ الثلاثة: قصديّة الكاتب، وقصدية النص، وقصدية القارئ برأي إيكو(١٤). ومن نافل القول إنه آتٍ من حقل الرياضيات، بيد أننا لا نُريد به، هنا، مُجرَّد الوقوف عند الوجه الذي تشترك فيه

مجموعتان من العناصر، أو هويّتان مُشكَّلتان من خصائص نوعيّة، بل نُريد به، فضلاً عن ذلك، ما يُعدُّ وجهَ اختلاف بينهما. وبالتالي يكون القصد من استخدام التقاطع ماثلاً في إبراز النسقيّة التي يتضافر بموجبها توليف موضعَات مختلفة تُجاه عالم الغياب، وهي تتقاسم الحيّز الذي تلتقي عند حوافّه. ويشكِّل هذا التوليف أهميّة بالغة في النظر إلى النسقيّة التقاطعيّة؛ إذ يجعل من فعاليتها غير مُنحصرة في الموضعَات المختلفة فقط، بل تتعدّاها أيضاً إلى ما يجعلها كذلك. والمقصود بذلك فعل تحيينها؛ حيث تُنقل من خلال مَعْبَر يضمن لها الوجود المُشترك. وهذا المَعْبَر يتأسَّس وفق ضرورة نمطيّة مُحدَّدة.

ويُمكِن نعت النسقيّة التقاطعيّة بكونها تُنتج الغياب انطلاقاً من موقع إخبار نصطلح على تسميّته بموقع الاستقصاء، بما يُفيده من نزوع نحو البحث، ومن إحساس بعدم الكفاية في علاقته بمصادر الحقيقة التي لم تَعُد تتحيّز في موضع قارّ، ولا تعرف استقراراً على مستوى الزمن.

يحدث الانتقال، إذن، مع هذه النسقيّة من استثمار موقع وحيد في نقل الغياب إلى اعتماد مواقع مختلفة؛ حيث يُخلي موقعٌ ما مكانَه لموقع آخر، من دون الإخلال بالصيرورة العامّة لإنتاج الحقيقة بوصفها غياباً. بيد أنّ ذلّك لا يعني بالضرورة اعتماد نتائج الأدبيات التي اشتغلت على الرؤية، والمنظور " زاوية الرؤية "[١٥]، ووجهة النظر، بما يستدعيه ذلك من صياغات خاصّة بالمعلومة، أو التعدّد الإيديولوجيّ، أو تموضع الصوت أو الرؤية قِياساً إلى مصدرهما، وإنّما يعني اعتماد الصورة النمطيّة الخاصّة بالسارد–الراصد، كما تنتج في الفضاء الخطابيّ داخل مجتمع ما، وتقوم بتنضيد العالم ونقل غيابه. فما تُقدِّمه تلك الأدبيات لا يتعدى توصيف تنويعات شكليّة تتعلق بضبط منبع الرؤية و وجهة النظر والصوت، من دون النفاذ إلى المُضمرات التي تتحكّم في إنتاج هذه التنويعات. هذا، فضلاً عن انعدام أي تفسير لسرّ الانبثاقات المُتغايرة لمصادر المعلومة والمنظور، وكيف تُؤثِّر في انتشار التعبير طبولوجيّاً، كما تتجاهل التجديل الزمنيّ الذي حدث بموجبه الانتقال من تنويع إلى آخر. وحتّى لا نُغادر مجال تصوّرنا، الذي نقترح وفقه هذه النسقيّة، نَعُدّ المواقع المختلفة المُعتمَدة في نقل الغياب غير مباشرة في إنتاج فعاليّتها؛ وذلك لأنّها مُمرّرة عبر موقع نمطيّ مركزيّ. وإذا قبلنا بهذا الأمر، فإنّنا نَعُدّ السارد– الراصد يتصل بعالم الغياب على نحو غير مباشر، وذلك باستقطاب ما تُبرزه مواقع أخرى تملأ المسافة الفاصلة بينه وهذا العالم. وبالتالي تصير الموضوعاتُ المختلفةُ التي تُظهرها مواقعُ متعددةٌ متقاطعةً بفعل مرورها عبر الموقع الرئيس الذي يُمثِّله السارد–الراصد. ومثل هذا الطرح له تبعاته على مستوى السارد الذي يحتلّ الموقع الأساس؛ حيث يُراودنا الشكّ في مدى حياده، أو موضوعيّته. فالربط بين انبثاقات المواقع المُتقاطعة والصيرورة السرديّة العامّة تضعنا

مباشرة أمام هذه المعضلة، وبخاصة بالنسبة إلى تلك الصيرورات التي تنتهي بحلّ ما. ونظراً لهذه الاعتبارات نظنّ أنّ النسقيّة التقاطعيّة تقوم على صورة نمطيّة للسارد الأساس قوامها الترجيح، أو التسويّة. فالترجيح يدلّ على إعطاء أهميّة لموقع تقاطعيّ، من دون التقليل من أهميّة المواقع التقاطعيّة الأخرى. إنّ دراسة العمل الأدبي ينبغي أن تُعنى ليس فقط بالنصّ الفعلي، وإنما أيضاً بدرجةٍ متساويةٍ، بالأفعال المتضمّنةِ في الاستجابة لذلك النص، فالنص نفسه يعرض، ببساطة، جوانبَ مخطّطة من خلالها يمكن إنتاج الموضوع الجمالي للعمل ورصده(١٦). ولا تتأتّى هذه الأهميّة بفعل عمليّة التنضيد التي تُخضَع لها المواقع التقاطعيّة نصيّاً، بينما تدلّ التسويّة على جعل هذه المواقع تلتقي جميعها في الإسهام في بلورة محتوى الغياب عن طريق تقاسم الأهميّة وتوزيع فعاليّتها بينها.

وتتجلّى التبعات المعرفيّة الخاصّة بالنسقيّة التقاطعيّة في إعادة النظر في مركزيّة الفهم، بفعل تراجع النسقيّة التحديديّة أمام بناء الموضوع من خلال بناء الذات، لا بوصفها فردانيّة، وإنّما بعدّها بنية مُمكِنة قوامها التشكُّل على ضفاف غيريّة مُقلِقة " التشكّلاتُ اللغوية التي تُصاغ فيها المضامينُ السرديّة الروائية، ليستْ سوى تمظهراتٌ دلالية لانواعٍ منشودةٍ من الواقع يسعى المبدعون، كلٌّ حسب رصيدهِ وطاقاتهِ الإدراكية، إلى إبداعها والتعبير عنها"(١٧). وتُنقل الوحدةُ، تبعاً لهذا الاعتبار، من مجال الموقع إلى مجال الموضوع الذي يُعَدّ بناؤه شرطاً ضروريّاً لانبثاق بناء الذات. ومن ثمّة يُعَدّ الموضوع، أو العالم مجالاً لتقاطع المواقع التقاطعيّة، سواء في حركة التقائها، أم افتراقها. وبالتالي تصير عمليّة التقاط العالم مُتحقَّقة من خلال مُتاح الموضوع، وليس انطلاقاً من عمل السارد–الراصد الأساس. وتصوّر من هذا القبيل يجعل من هويّة الإنسان ضرورة مُلِّحة، لا تنفصل معضلتها عن الموضوع، حيث تصير الغيريّة المُلابسة لهذا الأخير باعثة للإنسان على التنبّه إلى ما يعتريه من ترسّبات الغياب الذي لم يَعُد مُسنداً إلى العالم، بل إليه، أي تحويل وجود الحقيقة نفسها، بوصفها غياباً، من كونها قابلة للكشف عن نفسها، من خلال موضوع ما، إلى صياغتها وتعقّبها، وهي تنوِّع تحيّزاتِها عبر أنماط مُتعدِّدة من المواقع تتّخذ صبغات مختلفة (ذاكرة ، وعي ، إدراك ... الخ).

إن المسافة الفاصلة بين موقع الرصد وموضوعه لم تَعُد مُوحَّدة، بل صارت مُتعدِّدة تتأسَّس على معابر مختلفة، أي الانطلاق من الباب المفتوح، وهذا تصوّر يقبل بنسبة الحقيقة، لأن العلم نسقُ افتراضاتٍ"(١٨). وبعبارة أوضح، نَعُد المسافة نِتاجَ مسافاتٍ توسّطيّة تتحيّز داخلها أنماطٌ مُتباينة من الغيريّة. وتتبادل هذه الأنماط فعاليّةَ التوسّط في ما بينها؛ بحيث يصير أحدها توسُّطاً بالنسبة إلى الآخر على نحو أفقيّ. ومؤدّى ذلك أنّ الحقيقة لا تقبل التجسُّد، هنا، إلا كلعبةٍ من

الإظهار والإخفاء في الآن نفسه. فما يُقدَّم على أنّه إظهار على متسوى (الهُنا) يتبدّى في هيئة إخفاء على مستوى (الهُناك). ومن ثمّة يقبل كلّ من الحضور والغياب تبادل أمكنتهما، ولا يُفعَّل الانتشار الطبولوجيّ الخاصّ بالتعبير إلاّ بفعل هذا التبادل، وحركته التي لا تهدأ.

النسقيّة التباعديّة

يقتضي مفهوم التباعد الرغبة في الوجود على بُعد ما تُجاه موضوع مُعيَّن بغاية الانفصال عن تأثيره، أو الخروج من جاذبيّة بنيته، أو اتّخاذ الحيطة تُجاهه. ومعنى ذلك نشوء الهوّة بين الذات وموضوعها " يتعذّر الحصول على نصٍّ لا نستشفُّ فيه حضور الذات الناطقة بهِ، وهذا الحضورُ قد يكون مرئيّاً، إنْ قليلاً أو كثيراً، وهناك نصوصٌ أخرى ينمو فيها هذا الحضور صوبَ الاتحاد"[١٩]، أو ذات أخرى، بما يتطلّبه ذلك من صراع حول تدبير امتلاك الحقيقة.

يتأسَّس الموقع في هذه النسقيّة، إذن، قِياساً إلى موقع آخر، لا بغاية التقاطع معه، ولا بغاية تبادل لعبة الإظهار والإخفاء بين مواقع عِدّة، وإنّما بغاية بناء موقع آنيّ انطلاقاً من استحضار عدم صلاحيّة موقع آخر بوصفه موضوعاً يتعرَّض لعمليّة دحض. فالموقع المُعتمَد، هنا، لا يُهمِّه الكشف عن المبادئ التي تثوي خلف الموضوع، كما هو الحال بالنسبة إلى النسقيّة التحديديّة، ولا ضبط تحيّزات إنتاج الحقيقة، كما هو الشأن بالنسبة إلى النسقيّة التقاطعيّة، ولكن بناء خفاء الحقيقة انطلاقاً من محاولة نقل موقع مُغاير من مجال الإيجاب إلى مجال السلب. فمحتوى المسافة بين الموقعين المُتباعديْن يتمثَّل في تدبير البَوْن بينهما، وفق نصيب كلّ منهما من الهيمنة والصلاحيّة أو انطلاقاً من كون كلّ واحد منهما يظنّ أنّه مصدر الصلاحيّة والشرعيّة في بناء خفاء الحقيقة.

تقوم النسقيّة التباعديّة، إذن، في علاقتها بإنتاج الغياب على موقع يُنتِج نمطيّة الإخبار يُمكِن الاصطلاح على تسميّته بموقع الشرعنة؛ أي أنّه موقع لا يكتفي بنقل الغياب الذي يحفّ بالموضوع فقط، وإنّما يفعل ذلك أيضاً قِياساً إلى إضفاء الشرعية على فعل نقله الغيابَ انطلاقاً من نفي الشرعيّة ذاتها عن موقع آخر يُحايثه زمناً ومكاناً، لمماثلتِها للواقعِ الثقافي المُتفاعَل معه وتحقيق فكرة الامتداد[٢٠]، ويقتسم معه مأموريّة نقل غياب الموضوع نفسه.

قد يكون الموقع الآخر المُغاير الذي يَحدُث التباعدُ تُجاهه منفصلاً عن الذات، ومُجسَّماً في كليّة جماعيّة، وقد يكون مُتّصلاً بالذات المُتباعِدة، وينهض على تجربة فردانيّة تقدِّم نفسَها في هيئة اقتناع، أو اعتقاد. وغالباً ما يكون هذا الموقع وارداً في الروايات التي تجعل من

الإيديولوجيا أحد مُضمراتها الرئيسة؛ لأنّ كلَّ نص على تشفيرات عليا، ترتسمُ على وفق عدّةِ أشكال، منها ما هو بلاغي وما هو تاريخي وما هو سياسي وما هو اجتماعي(٢١).

وما دامت الإيديولوجيا بالنسبة إلينا هيمنة رمزيّة تقوم على إبداء قوّتها وفعاليّتها عبر التكريس أو الزحزحة، فإنّ لعبة الإثبات والنفي هي التي تُؤسِّس فعاليّة النسقيّة التباعديّة في تجلّياتها الحاسمة. والمقصود بذلك إثبات توسُّط مقابل نفي توسّط آخر. وبالتالي تصير المسافة مبنية، من حيث محتواها، انطلاقاً من مسافة أخرى. فالموقع المُتباعد عنه لا ينتفي، بل يحضر مُوازياً للموقع المُتباعِد " لسنا بناسين أنّ الفجوة بينَ زمان العالم والزمان المعيش لا تُردمُ إلا من خلال بناء روابطَ معينةٍ من شأنها أنْ تجعلَ الزمان التاريخي قابلاً للفهم والمعالجة"(٢٢)، وإذا ما فصل الزمن بينهما، فإنّ الأوّل منهما لا يضمحل، بل يحضر في هيئة ذكرى بالنسبة إلى الثانيّ. ومن ثمّة ينشأ عالمان، ومكانان خطابيان يُمرَّر الواحدُ منهما من خلال الحَيْد الذي يشرف منه الآخر، بما يُحيل عليه الحيد من إحساس بالأمان الذي يُتيحه النتوء الذي تقف عليه القدمان، ومن إحساس، في الوقت ذاته بالدوار الذي يُثيره الأسفل العميق. فالحدّ الفاصل الذي يُكوِّنه الحيد بين الهاوية، والحافّة يكتسي خاصيّة تحصّن حَذِر.

إنّ الحيد يُشكِّل المسافة بين الموقعين، أي مسافة الهاوية منظوراً إليها من خلال الحافّة. ويتحقَّق تدبير المسافة على هذا النحو، وفق مظاهر رئيسة: الانفلات، والاستبدال والضمور. ويخضع كلّ مظهر من هذه المظاهر لطبيعة نشوء الوجود داخل مجال الحيد.

يقوم مظهر الانفلات على تدبير الحيْد وفق وجود موقع مُهيمِن وموقع مُهيمَن عليه يتبادلان الحضور معاً في الزمن بتشكيل الحقيقة بوصفها غياباً داخل حدود الإخفاء والتستّر، بما يستدعيه ذلك من أشكالٍ للمُقاومة تتّصف بالمُخاتلة التي تُبنى على حماية الموقع المهيمَن عليه بتعطيل تنبّه الموقع المهيمِن، أو خداعه. وينتعش الانفلات خلال الفترات التي يستشعر فيها الموقع المهيمَن عليه قوةَ الموقع المهيمِن، وقدرته على الاستمرار. والهيمنة لا تتأتّى من شكلها المادّي، أو من خلال التصنيف الاجتماعيّ فقط، بل تتأتّى أيضاً، وبقوّة، من خلال توسّط رمزيّ مُعيَّن. وتُقدِّم رواية **القاهرة الجديدة**(٢٣) لنجيب محفوظ أنموذجاً جيّداً للنسقية التباعديّة القائمة على مظهر الانفلات؛ حيث يُبنى موقع محجوب عبد الدايم، الخاضع لهيمنة رمزيّة قوامها المفصَلة بين المنفعة وثنائيّة الظاهر والباطن، على الإحساس بمدى بونه عن الموقع المُهيمِن الذي يُمثِّله الرمزيّ الاجتماعيّ الذي يتأسَّس على تطلّب الوضوح، لا بوصفه دالّاً على الصدق، وإنّما بوصفه دالاً على الاندراج داخل تصنيفٍ للهويّة المُنتِجة للتعرّف. وبالتالي يصير الانفلات من التحديد، في علاقته بالآخر مُنتِجاً للغياب الذي يملأ المسافة بين المواقع (علي طه، مأمون،

وغيرهما) مُتّخِذاً من التستّر مظهراً له. وذلك لأنّ مظهر الانفلات يتأسَّس على إحساس بالمُجازفة والخطر في حالة الإعلان عن ذاته.

وينهض مظهر الاستبدال على تدبير البون بين موقعين، أحدهما آنيّ والآخر غير آنيّ، يتعاقبان في الزمن. ولا يُحتلّ هذان الموقعان من قِبَل ذاتين مختلفتين، بل من لَدُن ذات واحدة مُوحَّدة. كما أنّ الأمر لا يتعلَّق، هنا، بهيمنة موقع على موقع آخر، ولكن بفقدان أحدهما صلاحيّتَه أمام تبّدي صلاحيّة الآخر. ومن ثمّة يُشير الاستبدال إلى نوع من الانتقال من موقع سابق إلى موقع جديد وفق الوعي بمدى انسداد الأول ومحدوديّته؛ ممّا يُفضي إلى نشوء علاقة تقويم بين الموقعين، حيث يصير السابق منهما موضوعاً للّاحق. وتتّخذ عملية التقويم، في الأغلب، ذريعة لتبرير الاستبدال، ولعلّ رواية **نجمة أغسطس**(٢٤) لصنع الله إبراهيم تُفيد كثيراً في تجلية هذا المظهر. فالموقع السابق يتحدَّد في الزمن السياسيّ الذي يقوم على الاقتناع الشيوعيّ، والموقع اللاحق يتمثَّل في حالة استراحة المُحارب الذي يكتفي بأخذ الوقت الكافيّ لتعرّف الحياة الجديدة، بما يتطلبه ذلك من تعطيل المُبادرة، على مستوى الموقف، ومن انصراف إلى الرغبة في إشباع الذات، والاكتفاء بخيار المشاهدة والالتقاط. وهكذا يصير السدّ مكاناً موقعيّاً عاماً لإنتاج الغياب، وفق مبدأ الحيطة تُجاه الهاوية التي تُمثِّلها العودة إلى الموقع السابق المُستبدَل، وليس تُجاه السلطة. وذلك لأنّ مظهر الاستبدال يقتضي نوعاً من التكيّف مع الوضع الجديد الذي يتطلّبه التحصّن داخل الموقع اللاحق، ويُستخدم هذا الموقع من أجل إظهار انجلاء الوهم.

ويعمل مظهر الضمور على تدبير الحيْد انطلاقاً من وجود موقعين يعودان على ذاتين مختلفتين، وينبنيان على علاقتهما بتملّك الهيمنة والصلاحيّة. ويتحقّق هذا التملّك بفعل تحوّل في هذه العلاقة من جرّاء تحوّل القوّة من موقع سابق إلى موقع لاحق؛ ممّا يجعل الأوّل يتبدّى من خلال المُعاناة من ضموره أمام اشتداد صلاحيّة الآخر وهيمنته؛ ممّا يتطلّبه ذلك من حسرة، وتعبير عن الجدارة بواسطة التقاط الهاوية في هيئة انحراف. وتُعَدّ رواية **الحبّ في المنفى**(٢٥) لبهاء طاهر مثالاً جيّداً لمظهر الضمور. فالموقع الذي تحتلّه الذات يتأسَّس على الذكرى التي يُمثِّلها زمان الثورة الناصريّة. فغياب هذا الزمن وضموره يحوِّلانه إلى حالة ذهنيّة تكتسي صِبغة معيارٍ لِقياس الموقع النُتباعِد، وضبط درجة ميله وانحرافه؛ حيث يصير الحيْد مُكتسباً صفةَ تقابل تحقّقين للحياة: التحقّق الذي قادته الناصريّة، والتحقّق الذي يتحيّن في الحاضر. وهكذا يصير المنفى مكاناً موقعيّاً لإنتاج الغياب وفق مبدأ إعادة الاعتبار لموقع أُنتزعت منه شرعيّته، وأُسندت

إلى آخر لا يستحقّها. فبنية السارد–الراصد تستمدّ أهمّ عناصر تكوينها من مواصفات بناء الغياب على هذا النحو، وليس من التوصيف الشكليّ لنقل المعلومة، أو للصوت الذي يتكفّل بالكلمة.

النسقيّة التصدّعيّة

نستطيع القول إنّ التصدّع يُشير إلى ما يجعل صلابة ما مُعرَّضة إلى التفكّك، سواء أكانت هذه الصلابة مُحدَّدة في سطح، أم في كتلة ماديّة ذات حجم، أو في سمك ما. ويحمل هذا التفكّك معه مظاهر التشظيّ، والانقسام، وقابليّة الانفجار" إذ إنّ جماليات التشظّي تُشكّكُ أحياناً بجماليات الوحدة، لأنّ جماليات الوحدة تتجذّر أصلاً في رؤيةٍ رومانسيةٍ صوفيّةٍ للإنسان والطبيعة والماوراء، إذ يرى بعضهم أن هذه الرؤية انهارت ولم تعدْ تصوغُ موقفَ الإنسان المعاصر من الوجود أو من الآخر أو من نفسه"(٢٦). ولا يهمّ في الصدع ما يُشكِّله من تهديد بالانهيار، بقدر ما يهمّ إثارته التنبّهَ؛ أي الإشارة إلى ذاته وفعاليّته. وبالتالي تتحدَّد النسقيّة التصدّعيّة بإدراك فعاليّة الصدع الذي يُؤسِّس محتوى موقعها.

يقوم الموقع، إذن، في هذه النسقيّة على تفعيل العلاقة بين السارد– الراصد، وفعل رصده الحاملَ بوصفه موضوعاً. فمسألة أداة النقل رئيسة، هنا، نظراً لكونها المجال الذي يتجلّى فيه الصدع بارزاً؛ ممّا يُؤثِّر في طبيعة الحامل ذاته. وتُنتج هذه الأداةُ الغيابَ انطلاقاً من موقع يُمكِن الاصطلاح على تسميّته بالموقع الانشطاريّ، بما يُفيده من إخبار قائم على الاحتمال. ويتّسم إنتاج الغياب، هنا، بوجود مسارين: مسار الموضوع، ومسار فعل النقل. فالغياب الذي يتأتّى من جهة مسار الموضوع يتّصف بكونه مُواجَهاً بأنواع مختلفة من الحضور؛ ممّا يُؤثِّر في طبيعة إنتاجه؛ بحيث يتشكّل في هيئة تمزُّقات غير مُلتئِمة تُبرزها أنواعُ الصدوع التي تتخلّل أنماط الحضور المختلفة. وبالتالي يُقدِّم الغيابُ ذاتَه في هيئة آثار جزئيّة للموضوع تتجمّع عبر مواقع مُتباينة، أو عبر موقع واحد ينقلب على نفسه باستمرار؛ وذلك لبناء حقيقة لا تتّجه توّاً إلى غيابها، بل مداورة، من دون أن تستقرّ على نحو نهائيّ وقطعيّ، لأنّها مُشبعة باحتمال لا يكتفي بالتعبير عن نفسه فقط، بل يتجاوز ذلك أيضاً إلى التساؤل عن طبيعته. فلا شيء يُمكِن التأكّد منه، أو إحاطته باحتمالات صُلبه. ومن ثمّة يكون إنتاج الغياب، على نحو احتماليّ، مُوجَّها صوب انتظام أجزاء موضوع ما، أو عالم من دون حجم أو ترسّبات ويتبدّى هذا الإنتاج في الافتقار إلى المعقوليّة التي تجعل تلك الأجزاء مُنتظِمةً داخل كلٍّ مُتماسك، " تشتيت الدلالات وإعادة تركيب النصوص في مشهدٍ مُغاير يفلتُ من تضخّم المعنى وسطوةِ الذات المتعالية.. توسيع مستمر أو لا نهائي لفجوات النص وفصل قطعي أو قاطع بين تطابق المبنى والمعنى أو القصدية والدلالة"(٢٧)، أو

مُنتظِمة وفق السعي إليه. فالكلّ يصير احتماليّاً فقط أمام موضوع قوامه ذرّات تتواجد مُتجاوِرة يتجاذب حضورها ما يبتعثه الغياب من صدوع. ويتساوق إنتاج الغياب، على هذا النحو، مع ضمور المنظومات الإيديولوجيّة، والفكريّة الكبرى، والمروريات التي تهب الإنسان انسجاماً في الرؤية والفعل. وأمّا الغياب الذي يتأتّى من جهة مسار فعل النقل، فيتجلّى في انعكاس إنتاج الموضوع على الذات الناقلة له، أو الراصدة، بيد أنّ الأمر لا يتعلّق، هنا، بتعويض علاقة الإرادة بالحقيقة، على صعيد الموضوع، والمتّصفة بعدم اليقين، بغنى على مستوى الشكل الذي تُقدِّمُ الذاتُ به هذه العلاقة، بقدر ما يتعلّق بعمليّة التفاف على الغياب بعرضه كما هو، من دون الانشغال بما يُحقِّق صلاحيّته أو عدمها، لأن هذه الصلاحيّة تتعرّض بدورها للاهتزاز ويتّخذ هذا الالتفاف صِيغة انقلاب فعل النقل على ذاته؛ نظراً لأنّ الموقع لم يَعُد بدوره قابلاً للتعيّن داخل حيّز مُحدَّد. ولذلك يصير من اللازم على الموقع تبرير تحيّزاته المختلفة تُجاه موضوعه بإظهار نسقيّة اشتغاله، ونسقيّة نقله موضوعَه، والإخبار عن ظهور الإخبار، والإعلان عن مصادره، وفحصها، وعرض عمليات التنقيب عن الحقيقة التي تحفّ بالموضوع، ولا تثوي خلفه أو تُغذِّيه، والبحث عن مكامنها ومصادرها.

إنّ إنتاج الغياب في النسقيّة التصدعيّة شديد الصلة بصورة نمطيّة تُحدِّد الحيّز الذي يجب أن يشغله السارد–الراصد في المجتمع النصّيّ المُعاصر، الذي يتّسم ببلوغ العقلانيّة حدودها القصوى، وبروز تيارات تدعو إلى مُراجعة شاملة لأداء العقل، كما ساد في الحضارة الغربيّة؛ فالعقلانية الإغريقية من إفلاطون إلى أرسطو وكل من يدور في فلكهما، قد انبنت على مبدأ مفادُهُ أنّ المعرفة هي إمساك بالسبب ... فلكي تكونَ قادراً على منح العالم تفريعاً سببيّاً يجبُ بالضرورة أن تستحضر فكرة وجود سسلة وحيدة؛ ولذلك تتأسَّس الصورة النمطيّة للسارد–الراصد على إعادة النظر في أشكال العقلانيّة التحديديّة والنسبيّة اللتين شَكَّلتا توسّطاً بالنسبة إلى أنماط النسقيات السابقة، واتّجهت إعادة النظر هذه إلى طرح مسألة حدود فعل النقل والرصد، حيث تتّخذ المراجعة صِيغة جديدة لإنتاج الغياب، نصطلح على تسميّتها بغياب الغياب. ولا نعني بذلك انتفاء الغياب، وإنّما حضور أشكال الغياب التي تُنتج الغياب، المتمثّلة في غياب حدودٍ مركزيّةٍ، كما هو مُعايَن في مُنتَج ما بعد الحداثة؛ حيث تُنشَّط الحوافّ، من دون الاهتمام بإيجاد مركز ضامن للوحدة والتماسك. ومن ثمّة تكون السمة الغالبة على الصورة النمطيّة للسارد–الراصد ماثلة في إنتاج الغياب من خلال تراكمات أساسها سلاسل من الإحالة. ولذلك يصير حضور اللغة التي تُنتجها هذه الصورة احتماليّاً، من دون حسم، ومن دون داخل أو خارج، ومن دون عُمق أو سطح، فنكون أمام أشكال من الجوار، وحوافّ تتبدّى في صورة صدوع، لا نطلّ

منها على شيء، وإنّما نستبين عبرها مجاريَ مختلفةً للحقيقة تنهض على ترابطات حرّة مُستنِدة إلى فعل الاحتمال. وتُقدِّم رواية **غاندي الصغير**[٢٩] لإلياس خوري مثالاً حيّاً لهذه النسقيّة؛ حيث يصير النقل الذي تمارسه " أليس " ، عبر رصدها العالمَ، مبنيّاً على صِيغة احتماليّة، لا هو بالمُندرج في حركة الصدق، ولا المُندرج في حركة الكذب، ولا يُقدَّم العالم إلاّ من خلال غياب الغياب الذي تُمثِّله " أليس " ذاتها؛ ممّا يجعل من موضوع الحرب مصوغاً من خلال تموضعات تتراكم من دون وجود مركز يضمن لها التمحور داخل كلٍّ يسمح للحقيقة بأن تكون مُستنِدةً إليه.

إذا كانت الصورة النمطيّة التي تُميِّز هذه النسقيّة مُشكِّلة على هذا النحو، فإنّ فعاليّتها لا تكتمل إلا بإدراك طبيعة المسافة بين موقعها وفعله؛ ذلك أنّ المسافة لا تتمّ، هنا، بين موضوع وموقع. وحتّى في الحالة التي نقبل فيها ذلك، فإنّ الأمر يكون منظوراً إليه انطلاقاً من المسافة الأولى. وتتميَّز هذه المسافة بتوسّط لا يكون عماده الآخر بوصفه سلطة رمزيّة، وإنّما عماده هذه السلطة الرمزيّة نفسها من دون أن يكون هناك آخر قابل للتعيّن داخلها. فالسلطة الرمزيّة نفسها تصير وكأنّها تُنتَج من تلقاء ذاتها؛ لأن تطوّر ابتسمولوجيا اللغة مشروط بوضع العلوم التي تجعل من المعطيات الرمزية موضوعاً لها بهدف وصفها أو بنائها ... إذ إنّ هذه الابتسمولوجيا تُعتَبَر اللغةُ بموجبها نظاماً رمزياً مما يجعل اللسانياتِ مبحثاً علميّاً فرعيّاً ضمنَ علمٍ عامٍّ للأنساق الرمزية[٣٠]؛ لا لأنّ العالم يتصالح مع نفسه، وإنّما لأنّ التمايزات والتحيّزات صارت مُتداخلة وغير قابلة للتعيّن. وبالتالي يُفضي كلّ ذلك إلى إعادة طرح مسألة الذات، لا بوصفها جوهراً ، وإنّما بعدّها بنية مُفتقِرة إلى مركز ؛ الشيء الذي يُحوِّلها من بنية مُمكِنة مُؤسَّسة على ضفاف الغيريّة إلى بنية احتماليّة مُشيَّدة على سحب هذه الغيريّة نحو فعلها الخاصّ ، بما يُؤدّي إلى انشطارها.

الكيفيّة الاستكشافيّة

يشير لفظ الاستكشاف الموظَّف، هنا، إلى نزوع نحو ارتياد غير المعروف والمجهول، بغية الظفر بما هو جديد، أو مغاير، بما يعنيه ذلك من خوض للمغامرة، وما يقتضيه من تجريب، واختبار للقوّة الذاتيّة ووسائلها. ويحمل معه هذا الاختبار كلّ أصناف التقابل بين ما هو معتاد في الرؤية إلى الأشياء، بما تستند إليه من تكريس ثقافيّ، وما هو غير مألوف صادم أو مُقلق، أو يتضمّن في بنيته غرابة مُعيَّنة قِياساً إلى أُطر جاهزة في تقبّل العالم[٣١].

يتأسَّس الموقع في هذه النسقيّة على تفعيل علاقة السارد– الراصد بموضوعه وفق آلية التقاط عناصر مُتّسِمة بطابع المُفاجئ الذي يقفز إلى عمليّة الرصد، ويحتلّ فيها مركز الصدارة.

وبالتالي تصير حركة الحامل في هذه العمليّة حاسمة نظراً لأنّها تُعَدّ مَعْبَراً إلى العالم، وانتظام سيولته، خلال فعل التقاط عناصره، بما تفترضه هذه الحركة من تفعيل للحواسّ برمّتها، بيد أنّ حاسّة البصر تحتلّ، هنا، أهميّة قصوى قِياساً، إلى غيرها. وتُنتِج هذه الحركة الغيابَ انطلاقاً من إخبار يقوم على ما يُمكِن الاصطلاح على تسميّته بموقع الاستطلاع، بما يُفيده من فضول، ومقارنة بين عالمين: عالم الاعتياد المُنفصل عنه، وعالم الخبرة الجديدة المُتّصل به. ومن ثمّة تصير المسافة المُميِّزة لهذه النسقيّة ماثلةً في الفروق الموجودة بين العالمين المذكورين. وتَرِد هذه النسقيّة في كلّ النصوص السرديّة التي تهتمّ بموضَعَة حاملها في حالة من الانتقال في المكان، كما هو الشأن بالنسبة إلى جنس الرحلة[٣٢]، وكلّ النصوص السرديّة التي تتّخذ من الرحلة إطاراً لبناء سيولتها السرديّة. ولا تقتصر النسقيّة الاستكشافيّة على ورودها في نصوص الارتحال، بل تكاد توجد في كثير من النصوص السرديّة المُغايرة لها، القائمة على الخصائص التي سبق أن أشرنا إليها. كما أنّها تخترق كلّ أزمنة إنتاج السرد. فهي توجد في النصوص العريقة كما توجد في النصوص الحديثة.

تقوم النسقيّة الاستكشافية على أساس معرفيّ. ولا نريد بالمعرفيّ، هنا، ما يكون مُنتسباً إلى المعرفة المحض، وإنّما ما يُشكِّل إضافة إلى الخبرة الذاتيّة تُجاه العالم والذات معاً. فلا يقف الأمر عند حدود ترسّم آثار المُختلِف غير المألوف في الأشياء، وفي البُنى الثقافيّة لعوالم بشريّة مُختلفة، وإنّما يتعدّى ذلك إلى تعرّف الذات نفسها في ضوء ترسّم هذه الآثار. ومن شأن مركزَة هذا الأساس المعرفيّ في ذات تتعرّف نفسها عبر تعرّف العالم في مغايرته أن يُفضي إلى نتيجة مُؤدّاها أنّ السارد الذي يتكفّل بنقل غياب العالم إلى عالم الحضور يتميَّز بوحدته. وهذه الوحدة لا تعني فقط ما هو عددي، وإنّما تعني أيضاً ما يتضمَّنه في حركة نقله العالم من سعي إلى الحفاظ على تماسكه، بما هو نقطة استناد في النقل تجعله قادراً باستمرار على التمييز بين عالمه المُنفصل عنه والعالم المُتّصل به[٣٣]. بيد أنّنا، ونحن نُقرّ بهذه الوحدة على هذا النحو، فإنّنا لا نعني بها عدم خضوع السارد إلى نوع من التردّد بين الأزمة والأمكنة وما يترتَّب على ذلك من مُعاناة على صعيد سعيه نحو التماسك.

تتضمّن النسقيّة الاستكشافيّة في صلب بنيتها الإحساس بعدم وضوح العالم، وعدم كفاية تعرّفة الآنّي. وينشأ عن هاتين الخاصيتين تنويعٌ مُميَّزٌ على العلاقة بين الفكرة وتجسيمها. فالفكرة في النسقيّة الاستكشافيّة لا تتعلَّق بإرادة استعمال واضحة المعالم وذات محتوى بيّن منذ البداية، بل إرادة قائمة على تصوّر شكليّ؛ أي بفكرةٍ حول ما يتّجه نحوه السعي قادرةٍ على أن تُحدِّد التموضع والجهة والوسائل، وتترك مأموريّة إكساب شكل الإرادة الأوليّ محتواه إلى ما تُسفر

عنه التجربة التي تضطلع بدور تجسيم الفكرة من حيث هي شكل فقط. ومن ثمّة يكون السارد فيها معنيّاً بتتبّع تطور الفكرة من طابعها الشكليّ إلى المرحلة التي تستقيم فيها في هيئة محتوى مُجسَّم " لأنّ التجلّيات هي الصور الأولية التي تتحقّق بها الأشياء وتتحوّل من ثمّةَ إلى ظاهرةٍ قارّةٍ وثابتةٍ ولها وجودها الخاصّ واستقلالها أو شبهه من غيرها"(٣٤). ولا شكّ أن هذا التنويع على الفكرة وتجسيمها يُفضي إلى توزّع السارد– الراصد بين الصيرورة، أو عالم الحدوث، وعالم الفكر كما هو مُنتَج داخل الذات بوصفه إرادة شكليّة من جهة، وبوصفه تعرّفاً على العالم الخاصّ المُنفصل عنه من جهة أخرى. وتتولد عن النسقيّة الاستكشافيّة، وهي تبني أساسها المعرفيّ على هذا النحو، عملية استذهان مُتميِّزة، لا تتعلَّق بإكساب العالم قالباً ذهنيّاً، ولا بما يعتمل في ذهن الذات من أفكار يجب النفاذ إليها ونقلها، وإنّما بآثار التصادم بين النزوع الانفعاليّ والفكريّ الذي يُؤسِّس العالم كما هو مبني في لحظة القبل (ما قبل لحظة الانتقال في المكان) وما يُشكِّل ضغط الواقع الذي يمنح ذاته في صورةِ إضافةٍ في لحظةِ البُعد (ما بعد الانفصال عن العالم الأوّل والاتصال بالعالم الثانيّ). وتُقدِّم رواية **الحيّ اللاتينيّ**(٣٥) لسهيل إدريس مثالاً مناسباً لهذه النسقيّة؛ حيث تُقيم حركة السرد في الفرق بين عالمين مختلفين: الشرق والغرب، وتأخذ على عاتقها مأموريّة التقاط آثار التوتّر بين امتلاءٍ قبليّ أساسه النزوع الانفعاليّ نحو عالم منفصل عنه وتفريغٍ يستتبعه العيش داخل عالم مختلف يتطلّب امتلاءً مغايراً للأول، بما يعنيه ذلك من تجريب يُميِّز حركة التقاط عناصر العالم المُتّصل به؛ حيث ينفتح الغياب على ما هو مخالف ومغاير. بيد أنّ هذا الانفتاح يتأسَّس على مُجاورة المختلف لما هو مألوف في هيئة فرق؛ حيث المقارنة واردة بين العالمين. وهذه المقارنة تُفضي إلى تنقية العالم المُلتقَط بما يُلائم حركة تعرُّف الذات نفسَها، وهي تتعرَّف العالم المُتّصل به.

إنّ إنتاج الغياب في النسقيّة الاستكشافيّة ذو صلة وثيقة بصورة نمطيّة لا تخصّ مجتمعاً نصيّاً دون آخر، ولا حقبة دون أخرى، بل هي واردة في اللحظة التي يكون فيها التماسّ بين الثقافات أكثر بوناً، أو في اللحظة التي تجد ثقافةٌ ما نفسَها في حالة انسداد يصير معها الآخر أكثر إلحاحاً على الذاكرة والتطلّع، أو في أزمنة التوسّع التي تُصاحب هاجس الاستحواذ على العالم من قبل ثقافة مُهيمِنة اقتصادياً وسياسيّاً "هناك منظومةٌ من الطبقيّات الثقافية كلُّها تقتفي أثرَ الهرم"(٣٦). ولذلك تتأسَّس الصورة النمطيّة للسارد– الراصد في هذه النسقيّة على علاقة بالمكان ومدّخراته، لا بوصفه مكاناً فيزيائيّاً فحسب، وإنّما أيضاً بعدَّه مكاناً ثقافيّاً يتضمّن في صلبه إمكان تعرّف الحدود والفراق بينها في هيئة تقابل بين المرايا؛ حيث تقبل صور الذات النظر إلى نفسها، وبناء تعرّفها ذاتَها، في ضوء صور الآخر المُختلف. ويظلّ الزمن المُميِّز للنسقيّة الاستكشافيّة زمناً

مستقبليّاً، ولا يُعنى بما هو ماضٍ إلّا لماماً، وتحدث هذه العناية في حالة المقارنة بين ما هو متروك في العالم المُنفصل عنه والعالم المُتّصل به. فما يشغل حركة الرصد في موقع الاستطلاع هذا هو التطلّع – الذي لا يكفّ – إلى ما تقود إليه التجربة وتُسفر عنه. وقد يحدث أنّ تَرِد النسقيّة الاستكشافيّة في نصوص سرديّة لا يحدث الانتقال فيها إلى مجال ثقافيّ مُغاير، وإنّما يحدث هذا الانتقال داخل الثقافة الواحدة نفسها، من إحدى لحظاتها إلى لحظة أخرى قصْدَ تبيّنِ أثر تحوّل ما يجعل من نقط استناد سابقة غير مُجديّة أمام نقط جديدة لم تُستبن بعد طبيعتُها على نحو مُستقرّ. فيكون الموقع الاستطلاعيّ مُتّجها نحو التقاط عناصر جديدة في لحظة التحوّل، وبناء محتواه في ضوء الفروق بين عناصرَ ثقافيّةٍ قديمةٍ معروفةٍ تتّصف بحجمٍ هائل من الطمأنينة وعناصر ناشئة تبعث على القلق.

الخاتمة

يمكن الإشارة إلى كل نسقيّة من النسقيات المشيّدة داخل هذا البسط النظري على النحو الآتي:

تمثّل النسقية المطابقة صياغةً لوضعٍ ابتسمولوجيّ خاصٍّ بساردٍ منشغلٍ بما هو مستمرٌ وثابت، مقابل ما هو ظرفيّ وعابر، ومهتمّ بتنشيطِ الغياب بوصفهِ أنموذجاً ثقافياً أزلياً ومتعالياً من أجل استكمال الفراغ العارض الذي يطالُ الحضور بعدّه مجالاً آهلاً بالنقصِ.

تُعدّ النسقيّةُ التحديدية ذات صلةٍ بظهور عصر المرويّات الكبرى المفسِّرةِ، التي أخذت على عاتقها بناء الصيرورةَ العلّيّة التي تتخفّى وراء العالم والتاريخ، خارج ماتقدّمهُ التيولوجيا من حقائق.

تبيّنَ أنّ النسقيّة الراشحة تعبيرٌ عن مَفصلَة لحظتين تخلّلتا المنظومة الرمزية: لحظةُ هيمنةِ التحليل النفسي، ولحظةِ أزمة العقل بوصفهِ شرطَ تعقّل العالم وإدراكه، ومن ثمّ يصيرُ العالمُ منقولاً من موضعِهِ المُتعيَّن في الخارج (و / أو عالم الحدوث) إلى موضعٍ مُتعيَّنٍ في الداخل.

وتجدُ النسقيّة التباعدية التربة الخصبة للظهور والنمو في العصر السجالي الذي شهد اشتدادَ دور النخب في المجتمع العام، وممّا لا ريب فيه إن أي عصرٍ سجاليّ يحمل معه إلى هذا الفضاء ميزاتٍ رئيسةً لتدبير اللغة والفكر معاً أهمها: الجدل بما يتّسم به من تثمير آليات الحِجاج المختلفة، وإكساب المغالطة طابع الاستدلال المنطقي، وتنزيه النوايا والقناعات وبناءاتٍ لسانيةٍ تستضمرُ مغاياراتها ومضمراتها وأمكنةٍ خطابيةٍ متمايزةٍ ذات سمتٍ متماسكٍ

يتذكر باستمرار حدودهُ وحدود السموت الأخرى المناقضةِ لهُ ممّا يولّد تقابلاتٍ خطابيةً ذات نبراتٍ أسلوبيةٍ متميّزةٍ.

في النسقيّة التقاطعية يكتسب الموقع صفته المميزة بفعل القيمة الخلافية التي تنشأ من جرّاء مجاورتهِ موقعاً آخرَ وبالتالي لا يعدُّ التقاطعُ سوى تعبيرٍ عن هذه القيمةِ ما دام يشيرُ الى ثنائية الالتقاء والافتراق المنظّمة لصبغة الاختلاف.

في النسقية التصدّعية يكون التخييلُ السردي مجاوراً لهذه الهيمنة الوسائطية لأنهُ أحد وسائل إنتاج المعنى داخل المجتمع، وهو لا مناصّ له من أن يحوّل ما يخسرُه – قياساً إلى أساليبَ فنيّة أخرى مستحوذةٍ – إلى ثراءٍ داخليّ يتمثّل في تسخير ما تملكهُ اللغةُ من إمكاناتٍ وبدائلَ. وهذا التحويل هو القدرة على جعل المادة والوسيلةِ تفكّرانِ في ذاتهما. ويتّخذ هذا التفكيرُ في الذات شكلَ صدعٍ يصيرُ بموجبهِ النقل السردي عرضةً لمساءلةِ طبيعتهِ ومصادره.

لا يمكنُ إرجاعُ النسقيّة الاستكشافية إلى حقبةٍ بعينها من الزمنِ. فهي ترتبطُ بنزوعٍ إنساني عامّ يتجاوزُ المجتمعاتِ الخاصّةِ. ولذلك يكون من التعسّف ربطُها بتحوّلٍ مافي بنية الفكر أو الإدراك، ويمكنُ ربط اشتداد الحاجة إليها باللحظةِ التي تصيرُ فيها مسألة الآخر والغير ملحّةً على الشعورِ والفكر معاً.

الهوامش

١- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مونغوغنو، ت، محمد يحياتن: ٤٥- ٤٦.
٢- السرد العربي القديم ، إبراهيم صحراوي : ٩٩ – ١٠٠.
٣- ينظر ، النقد الثقافي ، عبد الله الغذّامي : ٧٧ – ٧٨ .
٤- ينظر ، جماليات التجاور ، كمال أبو ديب : ٢١ .
٥- الرحلة في الأدب العربي ، د. شعيب حليفي : ٣٤٠ .
٦- ينظر ، وهج المعاني ، سعيد بنكراد : ٩٧ .
٧- ينظر ، الإزاحة والاحتمال ، محمد شوقي الزين : ١٥١ .
٨- محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح ، د. عبد اللطيف محمود، د. جمال بندحمان: ١٩٧.
٩- المعنى وظلال المعنى ، د. محمد محمد يونس علي : ١١٢ .
١٠- ينظر ، الخطاب والتأويل ، د. نصر حامد أبو زيد : ٢٨ .
١١- الازاحة والاحتمال : ٢٣٤ .
١٢- ينظر ، بنية النص السردي ، د. حميد لحمداني : ٤٦ – ٤٧ .
١٣- السرد العربي ، سعيد يقطين : ٥٦ .
١٤- ينظر ، حدود التأويل ، وحيد بن بوعزيز : ٩٦ .
١٥- ينظر ، بنية النص السردي : ٤٦ – ٤٨ .
١٦- ينظر ، القارئ في النص ، تحرير سوزان روبين سليمان ، إنجي كروسمان ، ت د. حسن ناظم ، د. علي حاكم : ١٢٩ .
١٧- مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة : ٣١ .
١٨- ينظر، قضايا إيتسمولوجية في اللسانيات، حافظ اسماعيل عليوي، امحمد الملاخ: ٢٦٩ .
١٩- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ١٢٢ .
٢٠- مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر ، ٢٤٤ .
٢١- ينظر ، حدود التأويل ، ٢١ .
٢٢- الزمان والسرد ، بول ريكور ، ت سعيد الغانمي : ٢٧٤ .
٢٣- القاهرة الجديدة ، نجيب محفوظ .
٢٤- نجمة أغسطس ، صنع الله ابراهيم .
٢٥- الحب في المنفى ، بهاء طاهر .
٢٦- جماليات التجاور ، ١٩ .

٢٧- الإزاحة والاحتمال ، ٢١ .
٢٨- ينظر ، حدود التأويل ، ١٠٢ .
٢٩- غاندي الصغير ، إلياس خوري .
٣٠- قضايا ابتسمولوجية في اللسانيات : ١٨١ .
٣١- ينظر ، مستويات اللغة في السرد المعاصر : ١٤٦ وما بعدها .
٣٢- ينظر، الرحلة في الأدب العربي : ١٦٧ .
٣٣- ينظر ، جماليات التجاور : ١٩ – ٢٠ .
٣٤- السرد العربي : ٥٦ .
٣٥- الحي اللاتيني ، سهيل إدريس .
٣٦- النقد الثقافي : ١٣٨ .

المصادر

١- الإزاحة والاحتمال ، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية ، محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠٠٨ .

٢- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، حميد ، لحمداني ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٠ .

٣- تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ط ٤ ، ٢٠٠٥ .

٤- جماليات التجاور أو تشابك الفضاءات الإبداعية ، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٧ .

٥- حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي ، وحيد بن بوعزيز ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠٠٨ .

٦- الخطاب والتأويل ، د. نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

٧- الرحلة في الأدب العربي ، التجنّس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيّل ، د. شعيب حليفي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٦ .

٨- الرواية والتحليل النصي ، قراءات من منظور التحليل النفسي ، حسن المودن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠٠٩ .

٩- الزمان والسرد ، الزمان المروي ، بول ريكور ، ت سعيد الغانمي ، الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ج ٣ ، ط ١ ، ٢٠٠٦ .

١٠- السرد العربي القديم ، الأنواع والوظائف والبنيات ، إبراهيم صحراوي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠٠٨ .

١١- السرد العربي ، مفاهيم وتجليات ، سعيد يقطين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠١٢ .

١٢- القارئ في النص ، مقالات في الجمهور والتأويل ، تحرير سوزان روبين سليمان ، إنجي كروسمان ، ت د. حسن ناظم ، د. علي حاكم ، الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٧ .

١٣- قضايا إبتسمولوجية في اللسانيات ، حافظ اسماعيل عليوي ، امحمد الملاخ ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠٠٩ .
١٤- محمد مفتاح ، المشروع النقدي المفتوح ، تنسيق د. عبد اللطيف محفوظ ، د. جمال بندحمان ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠٠٩ .
١٥- مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر ، دراسة نظرية تطبيقية في سيمانطيقا السرد ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الانتشار العربي ، بيروت لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٨ .
١٦- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، دومينيك مونغونو ، ت محمد يحياتن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠٠٨ .
١٧- المعنى وظلال المعنى ، أنظمة الدلالة في العربية ، د. محمد محمد يونس علي ، المدار الإسلامي ، ليبيا ، ط ٢ ، ٢٠٠٧ .
١٨- النص وإشكالية المعنى ، عبد الله محمد العضيبي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١، ٢٠٠٩ .
١٩- النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ٥ ، ٢٠١٢ .
٢٠- وهج المعاني ، سيميائيات الأنساق الثقافية ، سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ٢٠١٣ .